موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية
www.coptology.org

دكتور جورج حبيب بباوي

التجسُّد أعلن تمايُز الأقانيم

هل عقيدة الثالوث أساسية للنمو الروحي؟

التجسُّد أعلن تمايُز الأقانيم

هل عقيدة الثالوث أساسية للنمو الروحي؟

دكتور جورج حبيب بباوي

٢٠٢٣

اسم الكتاب : **التجسُّد أعلن تمايُز الأقانيم**

(عن كتاب في برية مقاريوس مع الأب فليمون المقاري)

المؤلف د. جورج حبيب بباوي

الناشر : جذور للترجمة والنشر والتوزيع

١٤ ش محمود حافظ ـ ميدان سفير ـ مصر الجديدة – ت: ٢٧٧٩٦١٣٧

الطبعة : الأولى

كانت محاضرات اللاهوت النظري للأب أوجين دي بليسي، وكتاب علم اللاهوت للأب ميخائيل مينا، ومحاضرات أستاذنا الفاضل الدكتور وهيب عطاالله وغيرها من المصادر المعروفة التي كنا نأكلها. ولم يكن لدينا كتابٌ يشرح لنا الجانب الروحي لعقيدتنا في الله، أي الثالوث القدوس. وانشغلنا زمانًا طويلاً بالجانب الدفاعي للردِّ على الاعتراضات العقلية والفلسفية التي قيلت ضد الثالوث، ولكننا لم ننشغل بما فيه الكفاية بالجانب الروحي؛ هل عقيدة الثالوث أساسية للنمو الروحي؟ لم أطرح هذا السؤال بشكل مباشر على الأب فليمون، ليس اشفاقًا عليه، وإنما لأنه كان له أسلوبٌ ظاهر في الحياة الروحية هو أسلوب مَن له نظر روحي ثاقب، يرى أولاً وبعد ذلك يدرس ويحلل ويجد راحته وعزائه في الكتاب المقدس وصلوات الكنيسة.

كانت القِطَع الكبيرة من ثيؤطوكية يوم الأحد، وباقي القِطَع بمثابة مدخل روحي عقيدي للتجسُّد وسائر العقائد الأخرى. ولم يكن الأب فليمون يميل إلى الجدل، بل كان يرى الأمور الإلهية بوضوح وشفافية تجعله يفضِّل السكوت والصمت على الجدل. كان يحب الصلاة، ويرى أن الصلاة هي المدرسة الأولى لتعلُّم اللاهوت.

وتذكَّرتُ عبارة العلاَّمة أوريجينوس كما دوَّنها إيفاجريوس: «اللاهوتي هو مَن يصلي بصوتٍ عالٍ». وكنت أُدرِك أنني أمام لاهوتي فَذ أدرَكَ الأسرار الإلهية، وحفظها في قلبه وصارت اختباره الحي الذي لا يبوح به.

كان يومًا باردًا في شتاء عام ١٩٦٢ وكنتُ قد عُيِّنتُ مدرسًا بالإكليريكية، وكانت مناهج الدراسة هي بعينها لم تتطور، وكانت حصة كتابات الآباء قليلة جدًا. كان قداسة البابا كيرلس قد أوصاني بدراسة

مار اسحق، وكانت مكتبة دير السريان عامرة، بينما كانت مكتبة دير الأنبا مقار في حالةٍ يُرثى لها. ولعلني أذكر هذا اليوم أكثر من غيره، فقد شاء الرب أن يفتح الأب فليمون قلبه لكي يُعلِن ما ناله من أسرار.

قال الأب فليمون:

«في بداية رهبنتي قال لي واحد من شيوخ الدير عبارة واحدة صارت مثل قانون لحياتي. قال يا ابني الرهبنة هي تجسُّد للرب في حياتك، أخذ الرب جسدًا من العذراء لكي يكون أيقونة كاملة، ولكي يجعلك أنت الأيقونة الحية المماثلة (المشابهة) لأيقونته الحقيقية. وأعترِف لك يا أخ أنني كثيرًا ما كنت أرتعب من هذه العبارة، لأنني كنت أرى نقصي وخطاياي، وكنت أجلس وأبكي أمام الرب سائلاً منه أن يغفر لي خطاياي. وقد وجدتُ العزاء في الاعتراف بخطاياي وسلامًا في الصلاة.

كنتُ في الكنيسة في عيد ختان الرب يسوع المسيح، وتذكَّرت كيف قَطَع السكين لحم الرب لكي ينفِّذ ناموس موسى، وصلَّيتُ لكي يقطع السكين، أي الصليب، كل ما في حياتي لكي أنال ختان المسيح (كولوسي ٢: ١١). وفَتَحَ الربُّ عقلي، فأدركت أن تجسُّد الرب هو اتحاد أقنوم الكلمة الابن بكل ما في الطبيعة الإنسانية من صفات ومشاعر وإرادة وخيال، في النفس، في الذاكرة وفي القلب، وبكل ما في الجسد الإنساني. بدأتُ أشعر بأن محبة الرب يسوع التي تُوصَف بأنها محبة البشر هي محبة خاصة،

وبدأت أُصلِّي سائلاً الرب أن أُحب جسدي كما يحبه الرب، ولكنني أدركت أن هذا لن يأتِ بالتأمل العقلي، بل بسُكنى الروح القدس، لأن الروح القدس هو الذي أعطى للابن جسده، وهو محبٌّ للخليقة، حتى أنه يظهر بشكل حمامة أو في ألسنة نارية، فهو يحب الخليقة التي نالت وجودها من الآب بالابن، وهو الذي يدفعها ويحركها بعناية وحرص نحو الآب. علينا أن ننتبه إلى هذه الحقيقة لأن **نظرتنا إلى الجسد هي العائق الحقيقي الذي يمنعنا من الإيمان بكل أبعاد التجسُّد، وأحد هذه الأبعاد هو محبة الرب يسوع لجسده**، وهي المحبة التي أعلنها في تقديم جسده ودمه لنا في سر التناول.

وقد أدركتُ بعد سنوات من الصلاة والتأمل أن تجسُّد الرب هو أساس عقيدة الثالوث.

كنتُ أسمع الإنجيل في القداسات، وكان فصلٌ واحد يكفي عدة أيام وربما شهور لكي أتذوَّق العسل الخفي في كلمات الرب. أدركتُ أن بشارة يوحنا هي الأساس الرسولي الذي يجعلني أُدرِك أن التجسُّد هو أساس إعلان الثالوث. نحن نرى ما ذُكِر في العهد القديم مِن خلال تجسُّد الرب. وحسب كلمات الكتاب المقدس، **نحن لا نملك أي علاقة مِن أي نوع مع الآب أو الروح القدس إلاَّ مِن يسوع المسيح رب المجد وفيه، فهو يعطي لنا مكانةً في حضن الآب، لأن الذي في حضن الآب كل حين هو رب المجد، وهو رأس الإنسانية. ومن الخطأ أن**

نتصور أن حضن الآب محصور ومحدود، وأن الرأس وحده هو الذي في حضن الآب، ولكن كل الإنسانية في رب المجد يسوع المسيح كائنة في حضن الآب، ولكن لا يفهم هذه الحقيقة إلاَّ المؤمنون بيسوع.

من السهل علينا أن نتصوَّر كيف يعلِن التجسُّد الثالوث القدوس، ولكن علينا أن ندرك أن عمق هذا الإعلان هو تأسيس علاقة جديدة بالآب وبالروح في المسيح يسوع ابن الله. فالاعتراف بابن الله هو اعترافٌ مباشر بعطية التبني، لأن الإعلان عن بنوة الابن لنا هو إعلان عن النعمة، ولذلك الإيمان بالثالوث القدوس هو إيمان بالنعمة المعطاة لنا في ابنه، وهي نعمة يُثبِّتُها الروح القدس فينا حسب وعد الرب في إنجيل يوحنا.

لقد مرَّت عليَّ سنوات قبل أن أستوعب هذه الحقيقة الرسولية، وقد دُهِشتُ لأنها كانت واضحة جدًا في العهد الجديد، ولكن فكري لم يكن مستعدًا لهذه الرؤية بسبب ما زَرَعَته الخطية من انقسامات في الفكر. خطورة الخطية هي في أنها تحوِّل كل الأشياء إلى وسائل. وخطورة الشهوة في أنها تختار ما يلائمها وتترك ما يتعارض معها، وعند ذلك تبدأ الانقسامات في الظهور مثل شروخٍ في بيتٍ قديم، تبدأُ صغيرةً ثم تتسع حتى ينهار البيت كله. البناء الفكري يجب أن يبقى متماسكًا كاملاً تحت سيادة المحبة وتحت سيادة الالتصاق بالرب وإنارة الروح القدس. بدون توفر هذه العلاقة يضيع كلُّ شيء منّا.

عندما تجمع المحبة، فإن ما تجمعه يظهر بشكلٍ جديد. كان جسدي هو جسدي الذي وُلِدتُ به، ولكن جسدي الذي صرتُ أُحبُّه بسبب سُكنى الروح القدس وبسبب محبة مُحب البشر للإنسانية، تحوَّل في نظري إلى ما هو أرفع وأعظم من التراب، إلى مسكن للثالوث، وإلى ذبيحة وقربان. وهذا نفسه ما جعلني أُدرِك أن نظرتي للجسد تؤثِّر على نظرتي للإفخارستيا نفسها، أي سر التناول نفسه. والالتصاق بالرب يجعل الرب دائمًا -حسب تعبير الكنيسة المقدسة- «ميناء الذين في العاصفة». فقد كنتُ أخاف من الرب عندما كانت تحيط بي التجارب والشهوات الرديئة، وكنتُ أريد أن أنتصر بقوة إرادتي، ولكنني واجهت الفشل واليأس. وأخيرًا، عندما كنت أقرأ حياة الأنبا أنطونيوس أدركتُ أنني لم أتعلم درس الرهبنة الأول، فقد كان الشيطان يضرب أبينا الأنبا أنطونيوس، ولكن عندما لجأ إلى «الميناء»، وجد السلام والتعزية.

عندما أدركتُ أن محبة الرب للبشر هي محبة لهم كما هم، أي كما هم في خطاياهم وسقوطهم، محبة تريد أن ترفعهم إلى فوق، حلَّ سلامٌ عميقٌ في قلبي.

وماذا فعل الالتصاق بالرب في فكري؟ لم أكن أُصلي فقط من أجل كل فكر يخطر على قلبي، بل كنت أجد أن أفكاري هي اعترافٌ دائمٌ لا ينقطع للرب «الطبيب الحقيقي لأجسادنا وأرواحنا»، وقد توقَّفتُ عند عبارة الصلاة: «يا مدبِّر كلِّ جسدٍ تعهَّدنا

بخلاصك»، لأن تدبير الخلاص هو تدبير كل ما يعلِن ويثبِّت محبة الله. هذا لا يمكن تأمله بدون شركة مع الرب وفي صلاحه. هذه الحقيقة العجيبة أراها في أن كل مرة نلتصق بالرب، ننال استنارةً من الروح القدس، وكل ما ننال استنارةً من الروح القدس، يزداد التصاقُنا بالرب.

أمَّا التحوُّل الحقيقي في حياتي الداخلية، فقد بدأ عندما أدركتُ باستنارة الروح القدس أن فهمي واختباري للثالوث يبدأ بالتجسُّد. لقد تجسَّد الربُّ ابن الآب لكي يعلِن لنا الآب والروح القدس. قبل أن تسأل كيف، عليك أن تسأل أولاً لماذا، لأن هذا هو **سِرُّ الإيمان بالمسيح؛ أن سبب وغاية الإعلان الإلهي هو الذي يردُّ على كل الأسئلة التي تندرج تحت كيف، وهذا يعني أننا يجب أن نبدأ من غاية تجسُّد الرب، لأن هذه الغاية هي التي تشرح لنا كيف.** أمَّا إذا بدأنا بدون الغاية، فإننا نصل إلى رمالٍ متحركة نغوصُ فيها حتى نموت، أي مثل تلك الرمال التي تقع بجانب طريق الملاحات في برية شهيت والتي سمعتُ عنها ولم أرها سوى مرةً واحدة. إن رمال الفضول تحرِّك رفض الإنسان لنعمة الله، ولكن الإيمان يجب أن يدخل مِن باب التدبير، أي مِن باب الخلاص لأن استيعاب الخلاص هو الذي يشرح لنا الإيمان.

لقد تجسَّد الرب يسوع من القديسة مريم والدة الإله ومن الروح القدس. **هكذا يبدأ التجسُّد بإعلان دور الروح**

في تكوين الإنسانية الجديدة، أي إنسانية يسوع، وليس إنسانية آدم الأول، إنسانية تأخذ وجودها من اللحم والدم الآدمي لكي تصل إلى رتبة الابن المتجسِّد. هذا تشرحه عبارة واحدة جامعة: «أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له».

عندما اتَّحد ابن الله بالناسوت، صار الناسوت هو مركز الإعلان عن أُلوهية الرب، وعن مسحة الروح القدس، وعن محبة الآب. ولاحِظ ترتيب التدبير؛ أُلوهية الرب الأزلية تعلَن في التجسُّد، ثم مسحته بالروح القدس في المعمودية. **والصلة بين التجسُّد والمعمودية هي صلة بداية الخليقة الجديدة بقوة ومواهب وعمل الروح القدس؛ الأولى من المسيح وفيه، والثانية من المسيح وفيه بالروح القدس.** هكذا ندخل إلى عقيدة الثالوث من باب اختبار التجديد، أي الخليقة الجديدة التي تحيا بالروح القدس. بدايتها وكمالها في المسيح وفي الروح القدس. وحسب الترتيب، نرى مِن كل هذا محبة الآب التي أكَّدها الابن عندما رُفِعَ على الصليب قرباناً وذبيحة محبة تعلِن لنا محبة الآب الذي قدَّم هذه الذبيحة لنا، ومحبة الابن الذي طواعيةً قدَّم ذاته، ومحبة الروح القدس الذي يسكن فينا لكي يسكب محبة الله ويقدِّسُنا، أي يعطينا محبته للآب والابن، فينقل الطبيعة المائتة، **لأن عدم المحبة هو عدم حياة وعدم الحياة هو موت.** وعندما نقترب من القيامة، فإن التعليم الرسولي يؤكِّد لنا أن الروح القدس أقام يسوع من الأموات (رو ٨: ١١)، وهو الذي سوف يُقيم

أجسادنا من الموت. فالروح يسكن فينا لكي يعلِن فينا ومِن خلال شركتنا في المسيح، القيامة التي بدايتها أو رأسها في الرب نفسه. فالتجسُّد، والمعمودية في الأردن، والموت على الصليب، والقيامة، هي كلها حركة المحبة الإلهية التي تحرِّك الناسوت في الابن نحو هذه الإعلانات التي تأخذ بدايتها في ناسوت الابن لكي ترفع عقولنا إلى غايتها، أي وحدة جوهر الثالوث، وذلك بتذوُّق واختبار هذه النعمة الفياضة.

فَتَحَ الربُّ ذهني لكي أفهم أن النعمة واحدة. لقد كانت بداية حياة الرب يسوع بالجسد من الروح القدس، وكانت خاتمة هذه الحياة في الجسد بالروح القدس الذي أقامه من الأموات، والذي تجلَّى بمجده على جبل طابور. ويُخطئ مَن يظن أن الرب يسوع هو وسيلة إعلان. هذا تقسيم جسداني، لأن الرب يسوع الذي أخذ بدايته من الروح القدس، أي تجسُّده، وأكمل خدمته بالقيامة، هو شخصٌ واحد، والذي ينمو فيه هو الناسوت وليس اللاهوت.

أعلَن التجسُّد تمايُز الابن عن الآب، ثم أعلن لنا هذا التمايُز نفسه بداية الخليقة الجديدة في المسيح، ثم أعلن لنا التجسُّد عمل الروح القدس، أي المسحة.

نستطيع أن نتكلم عن التصاق الخليقة الجديدة بالروح القدس، فهذه إحدى عطايا التجديد. هذا الالتصاق يبدأ بتكوين الإنسانية التي تحيا بالروح القدس. **هكذا كان المسيح منذ بداية تكوين ناسوته إنسانًا يحيا**

بالروح القدس، وعندما مُسِحَ كانت المسحة لنا كما كان الميلاد من العذراء لنا.

عندما دخل الناسوت شركة الجوهر الإلهي الواحد للثالوث، بسبب اتحاده بالابن المتجسِّد، وبسبب وحدة الابن بالآب وبالروح القدس، صارت كل خيرات اللاهوت في انتظار الإنسانية حسب تدبير الله. أنت تَعرِف يا أخ كم كان ولا زال لنا تاريخ مؤلم مع مجمع خلقيدونية، وكنتُ كلما سمعتُ أيَّ شيء عن «اللاهوت والناسوت» كنتُ أظن أن مثل هذه العبارات هي عبارات نسطورية. لكن أنت تعلم أن عبارة «واحد من اثنين» التي نرتلها في التسبحة السنوية هي عبارة جميلة مملوءة بالأسرار الروحية. لنا ربٌّ واحد يسوع المسيح، واحد من لاهوت وناسوت، هكذا نؤكِّد الاتحاد لكي نؤكِّد الخلاص ومجد الإنسان في يسوع المسيح رب المجد. **ولأن الابن ربنا يسوع المسيح، واحدٌ من اثنين، صار كل ما نقوله عن علاقتنا بالثالوث هي علاقة جوهرها واحد، ودائمًا من اثنين. نعمة واحدة تُعطى لنا من الثالوث بواسطة الابن وبالروح القدس، نعمة واحدة تعطى من واحد هو الرب يسوع من اثنين، أي من لاهوته وناسوته، ولذلك كل ما أُعطىَ لنا من الرب كان فيه دائمًا العنصر المخلوق؛ مثل مياه المعمودية، وخبز الشركة وكأس البركة. هذه النِّعم لها جانبها المخلوق الذي دُعيَ للشركة في الحياة الجديدة بسبب تجسُّد الابن الوحيد واتحاد اللاهوت بالناسوت.**

كذلك أيضًا يجب علينا أن نفهم حقيقة وجود الناسوت، أي ناسوت الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح رب المجد في وحدة جوهر لاهوت الثالوث. هذا السر أعمق من أن يُوصَف، ولكن مع ذلك لدينا بعض الإشارات التي تؤكِّد لنا حقائق عظيمة خاصة بالخلاص. وعلى سبيل المثال: **لماذا قال الملاك لوالدة الإله: «الروح القدس يحلُّ عليكِ وقوة العلي تظلِّلُكِ لذلك القدوس المولود منكِ يدعى ابن الله»؟ لم يكن هذا من أجل ميلاد الرب وحده، بل من أجلنا نحن، لأن الروح القدس يحلُّ على مياه المعمودية، والمولود من مياه المعمودية يتقدَّس، ويصبح ابن الله في المسيح.** كانت هذه البداية هي «جذر» أو «أصل» الخليقة الجديدة في المسيح، وهنا لا يجب أن نسأل كيف، بل لماذا؛ لأننا عندما ندخل الحياة الجديدة، فنحن ندخل بشركة في الثالوث، هذا ما يجعلنا نقول في التسبحة الكيهكية:

«قلبي ولساني للثالوث يُسبِّحان
أيها الثالوث القدوس ارحمنا»

نحن نسبِّح الذي لأجلنا أرسل ابنه، والذي منه وفيه نُولَد دائمًا ولادة لا تنتهي بالانفصال، بل ولادة تقود إلى الشركة. لقد حلَّ الروح لكي يُولَد الابنُ متجسِّدًا من البتول والدة الإله. ونحن بعد العنصرة، حلَّ الروح القدس على جماعة الرسل لكي يُولَد من الكنيسة بالتعليم وبسر المعمودية أبناء الله المدعوين إلى شركة الرب يسوع، وإلى الحياة الجديدة. جاء الروح القدس

منذ بداية التجديد لكي يخلق الأصل الجديد للجنس البشري الذي سيصير مواطنًا سماويًّا. هذا ما تؤكده التسبحة السنوية وتعلنه في أبسط كلمات ممكنة عندما نعطي السلام «لبيت لحم»».

ساد صمتٌ برهةً، وكان الأب فليمون يستعيد ذكريات خاصة. كان يصلِّي، وقال بعد فترة طويلة من الصمت:

«هل تعرف يا أخ معنى كلمة «المسيح؟»

فقلتُ له: نعم، الممسوح بالروح القدس.

قال: «وما هو معنى مسيحي؟»

فقلتُ له: الممسوح بالروح القدس.

فقال: «ولكن هل أدركت من معنى الكلمة «الممسوح بالروح القدس» أن ربنا يسوع صار الممسوح بالروح القدس لكي بالروح القدس يُصلَب؟»

فقلت له: نعم.

فقال: «هل تعرف ما هي علاقة الروح القدس بصَلب الابن رب المجد على الصليب؟»

فقلت له: لم أدرس هذا الموضوع.

فقال: «إنه موضوع لا يُدرَس، بل علاقة أُعلِنَت لنا لكي لا نفصل الروح القدس عن الصليب، وحتى لا يقودنا عقل الخطية إلى هذا الفصل الذي فيه نفقد العلاقة بين الألم والمجد، بين الضعف والقوة، بين الهوان وعار الصليب وحرية أولاد الله، بين فلسفة ومنطق العالم وحياتنا كذبائح في هيكل الله».

هكذا تكلم في سرعة وفي دقة، كأنه كان يقرأ ما في عقلي من أسئلة عن جدوى اكتشاف العلاقة بين الصليب ويسوع الممسوح بالروح القدس. ونظر إليَّ وقال:

«ماذا يحدث لنا عندما تصبح الجلجثة والقبر والعلِّية، حيث حلَّ الروح، ثلاثة أماكن منفصلة ليس بينها رابط سوى الكلام الذي نقوله؟ لقد حلَّ الروح في العلية حيث أعطانا الرب يسوع جسده ودمه سِرًّا، وكان يسوع قد صُلِبَ على الجلجثة حيث كان الروح القدس، روح المسحة، الروح الذي منه أخذ يسوع صفة «المسيح»، فصارت الجلجثة والعلية حقيقة واحدة يربط بينهما القبر، أي موت ودفن الرب يسوع المسيح، رب المجد.

عندما جاء الربُّ إلينا، كان الموتُ هو المشكلة الحقيقية. في آدم كان الموتُ تابعًا للخطية، وبعد آدم صارت الخطية تابعة للموت. كانت الخطية هي الأصل، والموت هو الفرع الذي نما منها، وبعد آدم صار الموت هو الجذر الذي منه تفرَّعت كلُّ شجرة الخطية. بسبب الموت يُخطئ الإنسان.

ولكن في المسيح، كان الموتُ هو ما حدث على الصليب. مات الربُّ وبموته ماتت الخطية، ولذلك يقول الرسول: «لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية»، أي أن **الرب مات للخطية، أي الحياة المستقلة عن الله والغريبة عنه، ولذلك السبب قال على الصليب: «إلهي لماذا تركتني؟»** هذا عجيبٌ حقًا، إذ كيف

يشعر يسوع الممسوح بالروح القدس «مسيح الآب» بأن الآب قد تركه؟ لم يذكر يسوع الروح القدس، ولا فَقَدَ صفته كمسيح، لأن الروح القدس كان يُعِدَّه وكان هو فرحًا بهذه الخدمة التي وصفها الرسول في العبرانيين: «مستهينًا بالخزي»، وطبعًا نحن نفكر في شتائم وإهانات اليهود. هذا طبعًا هو المعنى الظاهر لكلمة «خزي»، **ولكن الخزي والعار هو الحياة البعيدة عن الله التي تفقد سبب أو غاية وجودها، ولذلك كان لموت الرب وجهان؛ الأول: الإنسانية العارية من مجد الله الفقيرة جدًا، والتي قال عنها الرسول: «أعوزها مجد الله»، والوجه الآخر: المجد الأبدي ليسوع.** هذا المجد لم يظهر كما ظهر على جبل التجلي. لقد تجلَّى الرب قبل صلبه لكي يؤكِّد أنه ربُّ المجد، ولذلك يقول الرسول بولس: «لأنهم لو عرفوا لما صلبوا رب المجد»، فالصليب عارٌ وخزي وموت ودينونة، ولكنه في نفس الوقت مجد وقوة وحياة، ولذلك قال الرسول: «أما أنا فحاشا لي أن أفتخر إلاَّ بيسوع المسيح وإياه مصلوبًا». وقال إن «كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، أمَّا عندنا نحن فهي قوة الله»، ولم يكن الرسول يتكلم فقط عن رفض اليهود، بل عن الإنسانية التي ترى في موت الرب العار والخزي والضعف، وهو ما يصدم عقل الإنسان المتعجرف الذي لا يعرف ما لروح الله.

لكن إذا وضعنا القبر بين الجلجثة، أي الصليب، والعلية حيث حلَّ الروح القدس، نُدرِك أن يسوع ربنا مات ودُفِن لكي ينال مجد الممسوح بالروح القدس.

هكذا عَبَرَ الربُّ من حياة آدم الأول حتى جاء إلى الموت ودخله كمسيح الآب، ودخله بقوة الروح القدس الذي مَسَحَه لهذه الخدمة الكهنوتية، لكي بموته يضمّ الروحُ من قوة رب الحياة إلى ضَعف وآلام الصليب وموته. هكذا اشترك الروح القدس في صَلبِ الرب، ولذلك، عندما يتكلم الرسول عن شفاعة الروح القدس الذي يشفع فينا بأنَّاتٍ لا يُنطَق بها، فهو يقدِّم لنا حضور الروح القدس في يسوع في بستان جسثيماني بشكل خاص. لقد قال الرسول عن ربنا إنه عندما كان في الجسد، أي «في أيام جسده، قدَّم بصراخٍ شديد ودموعٍ طِلبات وتضرعات للقادر أن يخلِّصه من الموت، وسُمِعَ له من أجل تقواه». وأضاف الرسول بعد ذلك «ورغم كَوْنِه ابنًا تعلَّم الطاعة مما تألم به. وإذ كُمِّلَ صار لجميع الذين يطيعونه سَبَبَ خَلاَصٍ أَبَدِي» (عب ٥: ٧ - ٩). لقد صلَّى ربنا يسوع المسيح بالروح القدس، كان صراخه وتضرعه هو صراخٌ شديد ودموعُ الممسوح بالروح، لكي يتَّحد الروح القدس بهذه الأنَّات (جمع أنين). وبسبب المسحة، سُمِعَ للابن المتجسِّد، وبسبب تقواه وقداسته الذاتية «عَبَرَ كأس الموت»، نعم «عَبَرَ» بالقيامة[1]، وعندما قال الرسول إن الرب صرخ «للقادر أن يخلِّصه من الموت»، أعلن شركة الآب في الفداء، في الخلاص، لأن الآب عندما قدَّم ابنه فديةً أو كفَّارةً (رو ٣: ٢٤)، فقد كان يؤكِّد أنه سوف يخلِّص الابن

١- العبور هو أحد معاني كلمة بصخة. هكذا يجب أن نفهم ''فلتعبر عني هذه الكأس''، أي ليُشرِق نور القيامة، قيامة القدوس الذي بلا عيب الذي يدخل ويجوز وادي ظلّ الموت.

المصلوب من الموت، كما كان الروح الذي مسحه لهذه الخدمة يؤهِّله لذلك، ولم يكن الرب ضعيفًا بل هو القدوس القادر على كل شيء، ووجود الرب واتحاده بالجسد هو الذي حتَّم على الآباء الرسل أن يكتبوا عن هذا الحق بهذه الكلمات.

لقد غَرَسَ الربُّ يسوع الصليبَ في مجال حلول الروح القدس، كنتُ أودُّ أن أقول لك في قلب الروح القدس ولكنني خشيت أن تصدمك الكلمة. وما هو قلب الروح القدس؟ هو التقديس، وهو كيان الأقنوم الثالث، الذي ينقله إلينا الروح القدس بواسطة آلام الرب وموته وقيامته، أي بواسطة شركتنا في هذه الآلام ومعاناة، أي مخاض الإنسانية الجديدة. هل وجدت هذا الكلام مطابقًا لما درست؟»

فقلت له: الحقيقة أننا لا نتحدَّث بالمرة عن علاقة الروح القدس بآلام الرب وقيامته، ولذلك أجد أن هذا الموضوع جديدٌ جدًا عليَّ. فقال:

«لديك درس خصوصي وهو أن تقرأ كل ما قيل عن آلام الرب وآلام أعضاء جسده في العهد الجديد، وأن تدرس أقوال الله الحية لكي ترى بنفسك أننا نشترك في آلام الرب، أي آلام ترك الخطية، وهي آلام رفض الشهوة، وآلام الوجود الكاذب المزيَّف حسب شهواتنا».

ساد الهدوء القلاية. وكنت أسترجع في ذاكرتي ما قيل عن آلام الرب وعن آلام الرسول بولس بشكلٍ خاص، وبعد فترة من الصمت

قال الأب فليمون:

«يا أخي المحبوب، توجد ثلاثة أنواع من الآلام. ألم الخسارة وفقدان ما نحرص عليه، وهذا يحرِّكُه الموت الذي فينا. ألم الفشل في تحقيق ما نطلب، وهو ألمٌ تحرِّكُه فينا الكبرياء. وألم مخاض الطبيعة الجديدة، أي طبيعة المسيح التي تُولَد فينا بكلمة الله وبالماء وبالروح، وتظل في حالة مخاض إلى يوم الانعتاق عن الجسد.

أُريدك أن تتأمل بعناية الألم الثالث، لأنه في الحقيقة يجمع الألم الأول والثاني، لأننا نُولَد كلما اصطدمنا بالموت، ونُولَد كلما واجهتنا صعوباتٌ وفشل. **والفرق بين آلام المؤمنين وآلام غير المؤمنين هو أن آلام المؤمنين لها غاية، وهي الاتحاد بالرب والذوبان في محبته، ولذلك عندما نخسر شيئًا، فإننا نُدرِك أن هذه الخسارة هي ربحٌ حسب قول الرسول بولس، وعندما نفشل في تحقيق شيء، فإننا نُدرِك أن الغاية الأعظم هي التي نسعى وراءها «لكي أدرك الكمال الذي لأجله أدركني الرب يسوع المسيح»**. هذا كله هو ما نصفه بالتقديس لأن الروح ينقل إلينا أنَّات الرب يسوع ومعاناة إنسانيته وهي تدخل مخاض الموت، وتُصارِع من أجل البقاء في وحدة كاملة مع أقنوم الابن الكلمة».

هنا قَفَزَ في ذهني سؤالٌ عَبَر في سرعة رهيبة، وكان بمثابة اعتراض فتح لي باب معرفة أكبر. قلت له: أبونا فليمون ألا ترى أنك تقسِّم المسيح الواحد إلى اثنين، لأنك تتحدث عن معاناة إنسانية

الرب، ونحن لا نفكِّر ولا نتصوَّر أن هذه الإنسانية لها وجود خاص مستقل عن وجود أقنوم الابن الكلمة؟ ألا ترى أنك تقترب من هرطقة نسطور؟

ولم يغضب بالمرة، بل سَمِعَ كلامي في صبرٍ وهدوء وقال:

«**ليعطينا الرب أن نرى أن ما حدث لناسوته هو برنامج الخلاص كله، لأن الرب يسوع المسيح أخذ ذلك الناسوت وجعله يتَّحد بأُلوهيته حسب التدبير لكي ينقل الإنسانية نقلاً كاملاً من حياة الانفصال إلى حياة الاتحاد، ومن الخطية إلى التقديس.** صدقني إن كل ما يقال عن الإيمان إذا لم يَرَ في تجسُّد الرب يسوع وموته على الصليب حياةً جديدةً وبداية عودتنا إلى اللّه، يصبح إيماننا دعوةً صريحةً للعودة إلى الانفصال، أنا لم أدرس الهرطقات، ولكنني درست في مدرسة الصلاة، وتعلَّمتُ هذه الحقائق:

أولاً: إننا ننال بدايةً جديدةً في المسيح، كيف؟

أقول لك: البداية ليست هي أقنوم الابن، بل الناسوت.

ثانيًا: إن كل ما حدث للرب حدث بسبب الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، لأننا لو تصوَّرنا أن ما حدث لناسوت الرب، حدث للناسوت وحده، وجدنا أنفسنا نعلِّم بهرطقة نسطور.

ثالثًا: إن اللاهوت هو مصدر حياة الابن المتجسد، وهو الذي يفتح لنا باب الحياة وينقل من حياته كل ما هو مجيد وصالح وأبدي ولا وجود له في الناسوت.

هذا هو جوهر الإيمان الأرثوذكسي، وقد قرأتُ مع أحد شيوخ الدير كتاب «اعترافات الآباء»، ووجدت أن ما يُقال في هذا الكتاب كاف جدًا لمن يريد أن يتعلم.

هل تتصور يا أخ أن الرب ترك جسده يموت عندما ذاق الموت بالجسد، وكان لاهوته في حالة سكون وكأن الأمر لا يعنيه؟»

قاطعته وقلت له: لا... لقد سمعت من أستاذنا الدكتور وهيب عطاالله أن اللاهوت تألَّم ألمًا أدبيًا، أي روحيًّا لأنه ليس له طبيعة جسدانية تتألم فقال:

«هذا عظيم، ولكن مع ذلك، يجب أن نسأل لقد تألم الرب الألم الذي يجعل ناسوته يُولَد إلى حياة عدم الألم، أن لا يرى في الصليب خسارةً أو فشلاً. هكذا تحوَّل الألم إلى ترك كل ما هو خاص بالطبيعة الإنسانية التي تعرف الخسارة وتخاف منها وترفضها، إلى الطبيعة الإنسانية التي تفرح بالخسارة وتراها مكسبًا، ولذلك صلَّى الرب في البستان لكي يؤسِّس قانون الصلاة الجديدة، أي قانون الطبيعة الجديدة. هذا القانون مبني على ثلاثة أشياء:

أولاً: الاتحاد التام حتى درجة التضحية بالموت.

ثانيًا: محبة الآب الفائقة، وتفضيل هذه المحبة على كل شيء آخر، واعتبار هذه المحبة مركز الحياة.

ثالثًا: انسكاب الروح القدس فينا لكي يشفع، أي لكي يُعلِّم كل مسيحي ما هي الصلاة حسب التصاق كل مؤمن بالمسيح المصلوب والقائم من بين الأموات.

نحن نسعى حاملين كلٌّ منّا «صليبه»، أي حياة البذل، وهي نفسها حياة جحد الذات. لا يوجد فرق بين جحد الذات وبذل الذات. **نحن نجحد حياتنا عندما ندرِك أنها بدون المسيح لا تستحق شيئًا، نفضِّل المسيح عليها.** وعندما تشتعل فينا محبة اللّه، فإننا نجحد حتى ما هو صالحٌ وحَسِن. هكذا نتحرك -يا أخ- نحو المسيح تاركين كل شيء. لقد ترك الرسل شِبَاك الصيد، بل تركوا أسرتهم وتَبعوا الرب، فقد أحبوه، ولذلك ساروا خلفه حاملين كلٌّ منهم «صليبه» الذي هو انعكاس صليب المسيح على حياتهم. هذا التحوُّل هو الذي جعل كل رسول يموت مصلوبًا أو شهيدًا، لأنهم التصقوا بالرب تمام الالتصاق، حتى أخذوا نفس «الميتة».

عندما ندخل «عرين الصليب» ندرِكُ محبة الآب ونفهم أن بذل الابن هو بذل الآب والروح القدس. لا يقدر أحدٌ أن يفهم أو يدرِك الله إلاَّ إذا تشبَّه بالله. هذا هو اللاهوت الحقيقي، لأننا لا نفهم أي شيء حتى نمارسه.

نحن نصلِّي بالروح القدس دائمًا، حتى في أوقات التغصُّب، لأننا وإن كانت لدينا إرادة وفكر، فإن الإرادة قد غُرِسَت فينا وصارت قوية بواسطة النعمة. وعندما نغصب أنفسنا، فإن جراح الصليب، أي صليبُنا نحن تُدمي وتسيل دمًا. هكذا يخطف الغاصبون الملكوت بالدم. كان الشيوخ يتحدثون عن التغصُّب، وقد أدركت من حديثهم أن التغصُّب يحتاج إلى العنف وإلى الغضب الموجَّه ضد الحياة القديمة، ضد ترك

المسيح والتخلّي عن الحياة المصلوبة. ولذلك، طوبى لمن يحمل الصليب في شبابه، عندما يغصب ذاته ويحمل صليبه بعنف وقوة وغضب الشباب.

كيف نصلّي بالروح القدس؟ يحرِّكُنا الروح نحو المسيح، أي نحو الولادة، نحو المسحة، نحو الصليب، ونحو القيامة. والالتصاق الشخصي بيسوع هو التصاقٌ بميلاده ومسحته وصليبه وموته ودفنه، ثم بقيامته.

نحن لن نعاين كمال القيامة إذا كنّا في الجسد، ولذلك قال الرسول: إننا ما دُمنا في الجسد فنحن «غرباء»، ونتغرَّب لأننا في غربة كورة الموت. ومع إشراق نور القيامة علينا وفينا، إلاَّ أننا لا نزال في جسد الموت، ورغم أن المسيح فينا يُولَد دائمًا ويُمسَح دائمًا ونُصلَب فيه دائمًا، إلاَّ أن كمال الحياة في المسيح مؤجَّل إلى الخليقة الجديدة الكاملة التي سوف تُعلَن في يوم القيامة.

هكذا أعود إلى بداية حديثي معك. لقد أعلَن التجسُّد تمايُز الأقانيم، ليس بشكل عقلي أجوف أو تأمل شخصي، ولكن بالالتصاق بالرب.

قد تسأل ما معنى أن تدخل ولادة يسوع في حياتنا؟ والجواب هو أن نُولَد من جديد مثل ولادة رأس الإنسانية، أن نكون حسب النعمة على ذات مستوى ولادة يسوع المسيح.

وما معنى أن نُمسَح فيه دائمًا؟ والمسحة الدائمة بالروح

القدس هي التحوُّل الدائم الذي يحدث فينا، والذي نراه دائمًا كلَّما التصقنا بالرب المصلوب والحي في آنٍ واحد. مصلوبٌ لأنه يبذل حياته لأجلنا.

كانت عبارة الشيوخ في الدير بمثابة قانون لحياتي، وكانوا يقولون إن الرب يفرح بتطهير الخطاة، ويفرح عندما نعود إليه. نحن نُحزِن الروح القدس عندما نخطئ، ولكن عندما نعود، يفرح بنا الروح القدس، ويرد إلينا الفرح بمحبة البشر المعلَنة في يسوع المسيح.

بالصلاة ندخل حياة الثالوث، وبالصلاة نسير مع المسيح حتى نصل إلى قيامته. وعندما نسير مع الرب، نختبر محبة الآب وسُكنى الروح القدس فينا».